المطلب العاشر

قياس الأولى وطريقة السلف الصالح
في إثبات الصفات

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

ففد تحدثنا في المطلب السابق عن بعض القواعد السلفية في توحيد الصفات، وبينا أن التوحيد هو أساس الاعتقاد السلفي في هذا الباب، وأنه لا بد للتوحيد من نفي قياس التمثيل والشمول، فقياس التمثيل هو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة، وهذا لا يطبق على ذات الله أو صفاته وأفعاله.

وعلمنا أنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر فارق، فمن نفى القدر المشترك فقد عطل، ومن نفى القدر الفارق فقد مثل، وذكرنا شرح ابن أبي العز الحنفي للقدر المشترك والقدر الفارق، وأن الاتفاق في اللفظ عند التجرد عن الإضافة لا يوجب التماثل، وأن المخَاطب لا يمكن أن يفهم المعاني المعبر عنها بالألفاظ إلا عند تقيدها وتخصيصها، وعلمنا أيضا أن قياس الشمول هو قياس يستوي فيه الأفراد تحت حكم واحد.

ثم بينا النتائج المترتبة على استخدام قياس التمثيل والشمول في حق الله، وأن نفاة الصفات ضلوا في فهم القدر المشترك والقدر الفارق. وبينا معنى حديث الصورة، ومعنى خلق الله آدم على صورته؟ ثم عرضنا رأي ابن تيمية في ظاهر نصوص الصفات، وهل هو مراد أو غير مراد؟

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن قياس الأولى وطريقة السلف في إثبات الصفات، وبيان باقي القواعد الأساسية لفهم منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **التوحيد عند السلف يؤدي إلى إثبات الصفات.**

علمنا أن القاعدة الأولى التي قام عليها اعتقاد السلف الصالح هي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله بنفي قياس التمثيل والشمول، أما القاعدة الثانية الأساسية التي قام عليها اعتقاد السلف فهي إثبات الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ؛ لأن الله ﷻ بعد أن بدأ بالتوحيد أولا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١.

اتبع ذلك بإثبات الأسماء والصفات التي تليق به فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. فالتوحيد يستلزم إثبات الصفات، وهذا ما يناسب الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

وبيان ذلك أن المتوحد المنفرد عن غيره لابد أن ينفرد بشيء يتميز

به، ويكون هو الوحيد المتصف به، أما الذي لا يتميز بشيء عن غيره ولا يوصف بوصف يلفت الأنظار إليه، فهذا لا يكون منفردا، ولا متوحدا، ولا متميزا عن غيره، فلو قلت مثلا: فلان لا نظير له، سيقال لك في ماذا؟ تقول: في علمه، أو في حكمته، أو في غناه، أو في قدرته، أو في ملكه أو في استوائه على عرشه، أو في أي صفة تذكرها، فلا بد من ذكر الوصف الذي يتميز به.

لكن من العبث أن يقال لك: فلان لا نظير له في ماذا؟ فتقول: في لا شيء، أو تقول لا صفة له أصلا، فالله ﷻ ـ وله المثل الأعلى ـ أثبت لنفسه أوصاف الكمال التي انفرد بها دون غيره، ونفي عن نفسه أوصاف النقص ليثبت توحده في ذاته وصفاته، فأثبت لنفسه الوحدانية في استوائه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ طه:٥. فاستواؤه له كيفية تليق به لا نعلمها، ولا مثيل ولا شبيه له فيها.

وأثبت الوحدانية في كلامه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. فكلامه بكيفية تليق به، ليس كمثله شيء فيها، ولا علم لنا بها، فمداركنا وإن استوعبت معنى كلامه، فإنها لا تستوعب كيفية أداء الكلام؛ لأنها كيفية غيبية. وأثبت لنفسه يدين لا مثيل ولا شبيه له فيهما فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ ص:٧٥. وكذلك الحال في سائر الصفات والأفعال.

- **طريقة السلف النفي المجمل والإثبات المفصل.**

كما أن طريقة السلف الصالح في إثبات الصفات هي طريقة القرآن والسنة، وهي تعتمد على أمرين اثنين:

الأمر الأول: النفي المجمل لصفات النقص، والإثبات المفصل لصفات الكمال. فالله ﷻ نفي عن نفسه كل صفات النقص إجمالا، ولم يفصل فيما نفاه تفصيلا، فقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١.

وقال أيضا: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص:٤.

وقد أثبت الله ﷻ لنفسه صفات الكمال على وجه التفصيل، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد:٤.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ الحشر:٢٢/٢٤.

وغير ذلك من الآيات التي عدد الله ﷻ فيها أسماءه وأوصافه

وأفعاله، مثبتا لها ولكمالها وجلالها ومفصلا في ذلك.

واعلم أن طريقة السلف في الإثبات والنفي على العكس من طريقة المتكلمين، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصلون في النفي، فمثال الإجمال في الإثبات، ما فعله أهل الاعتزال حين أثبتوا وجود ذات الله فقط، ونفوا عنه الصفات.

ومثال التفصيل في النفي عندهم قولهم في مدح الله: ليس بجسم، ولا شبح، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا.، ولا.. الخ.

وهذا يماثل قول الأحمق في مدح الملك أو الأمير: لست بزبال، ولا كناس ولا حمار، ولا نسناس، ولا خادم، ولا حقير، ولا متسول، ولا فقير، ولا.. ولا... الخ.

وكان يكفيه أن يقول: ليس لك نظير فيما رأت عيناي، أو لا يماثلك أحد في وصف كذا، كما كان يكفيهم أن يقولوا في مدح الله ﷻ كما قال تعالى عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى:١١.

لكنهم لا يرغبون في إثبات أي صفة من صفات الله ﷻ، فإن سألتهم: من تعبدون؟، قالوا: نعبد من لا صفة له، قيل لهم: من لا صفة له يكون معدوما بلا وجود، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله: المعطل يعبد عدما [١].

• **الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما.**

وهذه الطريقة التي اتبعتها طائفة المعتزلة، أو طائفة الأشعرية، أو أي طائفة من أتباع الجهمية هي في الحقيقة طريقة ذم لا مدح، فالنفوس مفطورة على أن تمدح بالإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات وليس العكس، فتدبر.

وقد ذكر ابن تيمية أن الله سبحانه بعث رسله بإثبات مفصل ونفي مجمل. فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل. قال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ ﴾ مريم:٦٥ [٢].

وقال أهل اللغة: هل تعلم له سميا أن نظيرا يستحق مثل اسمه، ويقال: مساميا يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثيلا أو شبيها.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤ ﴾ الإخلاص:٣/٤.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾ البقرة:٢٢.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٦/٥ ، ومنهاج السنة النبوية ٥٢٦/٢ ، درء تعارض العقل والنقل ٢٨٣/٣ نشر دار الكنوز الأدبية ، الرياض.

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٤/٣ بتصرف.

وقال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٠/١٠١ .

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ١/٢.

وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الصافات: ١٤٩/١٥٣.

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٨٠/١٨٢.

فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وسلامة ما نقلوه عن رب العالمين، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته كقوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٖ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٥ .

وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص: ١/٤ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ التحريم: ٢ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم: ٥٤ .

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٤

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ يونس: ١٠٧

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ البروج: ١٤/١٦ .

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد: ٣/٤ .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ محمد: ٢٨ .

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٤ .

وقوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾ البينة: ٨.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ النساء: ٩٣.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ۝١٠ ﴾ غافر: ١٠.

وقوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٢١٠ ﴾ البقرة: ٢١٠.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾ فصلت: ١١.

وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤ ﴾ النساء: ١٦٤.

وقوله: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ ﴾ مريم: ٥٢.

وقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٦٢ ﴾ القصص: ٦٢.

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ ﴾ يس: ٨٢.

وقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤ ﴾ الحشر: ٢٢/٢٤.

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل، ما هدى الله به عباده سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب، ومن دخل في هؤلاء من الصابئة المتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم، فإنهم على ضد ذلك يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجود مطلقا لا حقيقة في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل [(١)].

قال ابن تيمية: (وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو إثبات، بل اعتصموا بالكتاب والسنة، ورأوا ذلك هو الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من أسمائه وصفاته حقا، يجب الإيمان به وإن لم تعرف حقيقة معناه.

وكل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون، فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم، فإن كان مراده حقا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفي أو إثبات قلنا به؛

---

(١) السابق ٣/٥ بتصرف.

وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به.

ورأوا أن الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وهي طريقة الأنبياء والمرسلين.

وأن الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ الصافات: ١٨٠/١٨٢.

فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن. والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل، وينفي عنه التشبيه والتمثيل على طريق الإجمال. فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه عزيز حكيم، غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه غفور ودود، وأنه تعالى على عظم ذاته يحب المؤمنين ويرضى عنهم، ويغضب على الكفار ويسخط عليهم، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليما، وأنه تجلى للجبل فجعله دكا؛ وأمثال ذلك.

ويقول في النفي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١. ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٦٥. ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ النحل: ٧٤. ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص:١/٤. فيثبت الصفات وينفي مماثلة المخلوقات) [(١)].

- **طريقة السلف النفي المتضمن لكمال الضد.**

الأمر الثاني: في طريقة إثبات الصفات عند السلف الصالح أن طريقتهم في نفي النقص عن الله، النفي المتضمن لإثبات كمال الضد، فإذا قال الله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقرة:٢٥٥، علمنا أن نفي السنة والنوم يتضمن كمال الضد، وهو إثبات الكمال في حياته وقيوميته.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف:٤٩، فيه نفي الظلم عن الله المتضمن لكمال الضد، وهو منتهى العدل، وهكذا في سائر ما ورد في الكتاب والسنة.

وكل نفي لا يستلزم ثبوتا لم يصف الله به نفسه، ولذا فإن طريقة الخلف من المعتزلة والأشعرية في نفي صفات النقص عن الله هي بذاتها عين النقص لأنهم إذا قالوا: الله ليس بجسم، وتساءل العقلاء؟ ماذا يكون إذا لم يكن جسما؟ هل يكون عرضا؟ قالوا: ولا عرضا، فماذا يكون إن لم يكن عرضا؟ هل يكون شبحا خياليا؟ قالوا: ولا شبحا، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٨/٦.

طول، ولا عرض، ولا عمق، فيقال لهم: إن الله إذا نفى عن نفسه وصفا أثبت كمال ضده، فماذا أثبتم بهذا النفي غير الكلام الفارغ من المدح؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالنفي لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوتا، وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى، وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ ﴾ البقرة:٢٥٥. فنفْي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾﴾ ق:٣٨. يتضمن كمال قدرته ونحو ذلك، فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ونفي النقض عنه يتضمن تعظيمه) [(١)].

- **طريقة السلف في الإثبات استخدام قياس الأولى.**

ويجدر التنبيه على أنه يجوز في باب الصفات وإثباتها لله ﷻ استخدام قياس الأولى كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ النحل:٦٠. فإنه من المعلوم أن كل كمال ووصف ممدوح لا نقص فيه يكون لبعض

(١) انظر السابق ٣/٣٥. وانظر الكلام على دعوة ذي النون ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٥٠. وجواب أهل العلم والإيمان في أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، ضمن مجموع الفتاوى ١٧/١٤٢.

الموجودات المخلوقة المحدثة، فالرب الخالق الصمد القيوم هو أولى به، وكل نقص أو عيب يجب أن ينزه عنه بعض المخلوقات المحدثة، فالرب الخالق القدوس السلام هو أولى أن يتنزه عنه.

واعلم أن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من إشارة حسية في الصفات الإلهية فهو من باب إثبات الصفات بقياس الأولى، كما ورد في حديث الإشارة إلى السماء [١]، وحديث قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن[٢]، وحديث اليهودي في حمل السماوات على إصبع[٣]، وغير ذلك مما ثبت عن رسول الله ﷺ فهو محمول على إثبات الصفات بقياس الأولى.

وعدم فهم المتكلمين لذلك، وقياسهم تلك الإشارات بقياس التمثيل والشمول أدى بهم إلى رد السنة وتعطيلها، واتهام الشرع بأن ظاهره باطل مستحيل، وأنهم فهموا ما لم يفهمه النبي ﷺ وأصحابه من تلك الإشارات.

وقد ذكر ابن أبي العز أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده،

---

(١) انظر سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله ﷻ به ٥/٥٩٣ (٣٦٢٥)، ومسند الإمام أحمد ٥/١٨ (٢٠٢٠٩).

(٢) رواه مسلم في القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب ٤/٢٠٤٥ (٢٦٥٤).

(٣) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي ٦/٢٦٩٧ (٦٩٧٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٤٧ (٢٧٨٦).

فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها، ولهذا لما سلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية، لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها. ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ النحل:٦٠. مثل أن يعلم أن كل كمال للمخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه، فالخالق أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق، فإنما استفاده من ربه وخالقه، وهو أحق به منه، وأن كل نقص وعيب في نفسه تضمن سلب الكمال، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى [(١)].

قال ابن تيمية: (ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية قياس الأولى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ النحل:٦٠، إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق، فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه) [(٢)].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١١٧ بتصرف.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ١/٣٢٥.

وقد ذكر ابن تيمية أن السلف والأئمة كانوا في ذلك من العدل والاستقامة وموافقة المعقول الصريح والمنقول الصحيح بحال آخر، فالعصمة وإن كانت شاملة لجماعتهم، فآحادهم مع ذلك لا يجترئون في مخالفة النصوص المشهورة والمعقولات المعروفة على ما يجترئ عليه هؤلاء المسفسطون، وكانوا يستعملون القياس العقلي على النحو الذي ورد به القرآن في الأمثال التي ضربها الله تعالى للناس، فإن الله ضرب للناس في القرآن من كل مثل، وبين بالأقيسة العقلية المقبولة بالعقل الصريح من المطالب الإلهية والمقاصد الربانية ما لا تصل إليه آراء هؤلاء المتكلمين.

والله تعالى له المثل الأعلى، فلا يجوز أن يقاس على غيره قياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا يقاس مع غيره قياس شمول تستوي أفراده في حكمه؛ فإن الله سبحانه ليس مثلا لغيره، ولا مساويا له أصلا، بل مثل هذا القياس هو ضرب الأمثال لله، وهو من الشرك والعدل بالله، وجعل الند لله، وجعل غيره له كفوا وسميا.

وهؤلاء المتكلمون يكثرون من البراءة من التشبيه والذم له، وهم في مثل هذه المقاييس داخلون في حقيقة التمثيل والتشبيه، والعدل بالله وجعل غيره له كفوا وندا وسميا، كما فعلوا في مسائل الصفات والقدر وغير ذلك [(١)].

---

(١) السابق ١/٣٢٦ بتصرف.

• لا بد للموحد أن يحذر من التعطيل والتحريف.

من الأمور الهامة التي ينبغي للموحد أن يحذر منها صيانة للقاعدة الثانية حتى لا يهدم إيمانه بما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ أن يحذر من نوعين من الضلال، وهما التعطيل والتحريف المبني على التأويل الباطل، وبيان ذلك فيما يأتي:

١- التعطيل: وهو رد النصوص الثابتة في الكتاب والسنة ورفض محتواها وعدم التسليم لها.

وسببه اعتقاد المعطل أن إثبات الصفات التي وردت في تلك النصوص يلزم منه التمثيل والتشبيه، فالمعطل جسد صورة لربه في ذهنه تشبه صورة الإنسان، فوقع في محذورات القاعدة الأولى حيث اعتقد فيها التمثيل والتشبيه، وزعم أن ظاهر النصوص دل على ذلك، فأحس بالرفض التلقائي لتلك الصورة، والرغبة في تنزيه الله عنها، وبدلا من أن يعيب فهمه السيئ، وظنه الآثم في كلام الله وجه العيب إلي الكتاب والسنة، وبدأ في التحامل على النصوص بالباطل، فادعي أولا أن ظاهرها باطل غير مراد في كلام الله ﷻ، ثم حاول محو ما دلت عليه بأي طريقة، وتعطيلها عن مدلولها الذي يطابق الحقيقة.

رُوي عن الجهم بن صفوان، التصريح بالرغبة في محو كلام الله الذي أثبت فيه الاستواء على العرش لأنه تصور أن إثبات الاستواء تمثيل وتجسيم، والمعطلة كالمعتزلة والأشعرية والماتريدية يرددون مثل هذه العلة

في تأويل الاستواء بالاستيلاء والقهر. فقال الجهم: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت. يقصد قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥ [(١)].

ورويَ أيضا أن عمرو بن عبيد المعتزلي قال لأبي عمرو بن العلاء وهو أحد القراء: أحب أن تقرأ هذا الحرف: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب اسم الله، ليكون موسى عليه السلام هو الذي كلم الله، ولا يكون في الكلام دلالة على أن الله كلم أحدا، فقال له: فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣؟ فبهت المعتزلي!

وهكذا المعطل اعتقد في النصوص التمثيل، فاضطر إلى أن يعطلها، وقد علمنا من محذورات القاعدة الأولى أن الممثل عطل الصفة الحقيقية لله لأن تمثيله الباطل غطى على الحقيقة، ولذلك قال ابن تيمية: كل ممثل معطل، وكل معطل ممثل.

قال فخر الدين الرازي في بيان وجوب تعطيل صفة الاستواء

---

(١) انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١/١٦٧ (١٩٠) نشر دار ابن القيم بالدمام. وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت. والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٥٤. وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، لأحمد بن إبراهيم عيسى ٢/٨٨، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

وتأويلها بالاستيلاء: (إن الجالس على العرش لا بد أن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش، فيكون في نفسه مؤلفا مركبا، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب وذلك محال. كما أن الجالس على العرش، إما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة، أو لا يمكنه ذلك، فإن كان الأول فقد صار محلا للحركة والسكون، فيكون محدثا لا محالة، وإن كان الثاني كان كالمربوط، بل كان كالزمِن المشلول، بل أسوأ حالا منه، فإن الزمن إذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك، وهو غير ممكن على معبودهم. كما أن العالم كرة، فالجهة التي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض، وبالعكس، فلو كان المعبود مختصا بجهة، فتلك الجهة وإن كانت فوقا لبعض الناس ولكنها تحت بالنسبة لبعض آخرين، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء) [1].

• **رد شيخ الإسلام ابن تيمية على المعطلة .**

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على مثل هذا الكلام أن كثيرا من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي

---

(١) أساس التقديس للفخر الرازي تحقيق دكتور أحمد حجازي السقا ص ١٩٩، ص٢٠٣، وانظر أيضا مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٨٣/١٤ نشر دار إحياء التراث العربي، وقد تاب الرازي قبل موته، وعاد لمذهب السلف .

فهمه، فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:

١- كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

٢- أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله ﷺ، حيث ظن أن الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل، يبقى وقد عطل ما أودع الله ورسوله ﷺ في كلامهما من إثبات الصفات والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.

٣- أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلا لما يستحقه الرب سبحانه وتعالى.

٤- أن يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات، فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب، ومثله بالمعدومات والمنقوصات، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدا في أسماء الله وآياته.

ومثال ذلك ظن المتوهم أنه إذا وصف الله بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام كقوله

تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ الزخرف:١٢. فيتخيل أنه إذا كان مستويا على العرش، كان محتاجا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو غرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدابة لخر من فوقها.

ومقياس هذا عنده أنه لو انعدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى، ثم يريد بزعمه أن ينفي هذا فيقول: ليس له استواء، بل استيلاء، فيخطئ في مفهوم استوائه على العرش، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك، وليس في اللفظ ما يدل على ذلك؛ لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته، فذكر أنه خلق ثم استوي، كما ذكر أنه قدر فهدى، وأنه بني السماء بأيد، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى، وأمثال ذلك. فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق، ولا عاما يتناول المخلوق، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته.

وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة، فلو قدر على وجه الفرض الممتنع أنه هو مثل خلقه، تعالى الله عن ذلك، لكان استواؤه مثل استواء خلقه، أما إذا كان هو سبحانه ليس مماثلا لخلقه، بل قد علم أنه الغني عن المخلوق، وأنه الخالق للعرش ولغيره، وأن ما سواه مفتقر إليه، وهو الغني عن كل ما سواه، فكيف يجوز أن يتوهم أنه إذا كان مستويا على العرش كان محتاجا إليه، وأنه لو سقط العرش لخر من عليه؟!

سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، هل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله، أو جوز ذلك على رب العالمين، الغني عن الخلق؟! بل لو قدر أن جاهلا فهم مثل هذا وتوهمه، لبُيِّن له أن هذا لا يجوز، وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا، كما دل على نظائره في سائر ما وصف به الرب نفسه فلما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ ﴾ الذاريات:٤٧. فهل يتوهم أن بناءه مثل بناء الآدمي المحتاج، الذي يحتاج إلى زنبيل ومجارف وضرب لبن وأعوان؟

ثم قد علم أن الله خلق العالم بعضه فوق بعض، ولم يجعل عاليه مفتقرا إلى سافله، فالهواء فوق الأرض، وليس مفتقرا إلى حمل الأرض، والسحاب فوق الأرض، وليس مفتقرا إلى أن تحمله، والسماوات فوق الأرض وليست مفتقرة إلى حمل الأرض لها. فالعلي الأعلى رب كل شئ ومليكه، إذا كان فوق جميع خلقه، كيف يجب أن يكون محتاجا إلى خلقه أو عرشه؟ أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم في المخلوقات؟

وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغني عن غيره، فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى من المخلوق، وكذلك قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ ﴾ الملك:١٦ فمن توهم أن مقتضي هذه الآية زنبيل أن يكون الله داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق. فلو قال قائل: العرش في السماء أو في الأرض؟ لقيل: في

السماء. ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: في السماء. ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السماوات، بل ولا الجنة فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

(فَإِذا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ) (١).

فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع أن كون الجنة في السماء يراد به العلو سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها. قال تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الحج:١٥. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ الفرقان:٤٨.

ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى وأنه فوق كل شيء كان المفهوم من قوله: في السماء، أنه في العلو وأنه فوق كل شيء.

وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم موجود إلا الله. كما لو قيل: العرش في السماء. فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شئ آخر موجود مخلوق، وإن قدر أن

---

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٧٠٠ (٦٩٨٧).

السماء المراد بها الأفلاك كان المراد أنه عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ طه:٧١. وكما قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ النحل:٣٦. وكما قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التوبة:٢. ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح، وإن كان على أعلى شئ فيه [(١)].

إن لفظ الجلوس من الألفاظ المبتدعة التي لا يجوز إطلاقها في حق الله تبارك تعالى، لأنه لا يطلقه على الله إلا من يعتقد أن الله يشبه المخلوق في استوائه، ونحن لسنا أفضل من رسول الله ﷺ، ولا من أصحابه رضوان الله عليهم، حيث يعتقدون أن الله مستو على عرشه دون أن يحتاج إليه، بل يحمله هو وحملته بقدرته تعالى.

ومن ثم فلا نترك الاعتقاد الحق خشية أن يقال: هذا تشبيه، إنما التشبيه هو ما ذهبوا إليه من الاعتقاد الفاسد الذي عطلوا به صفات الله ﷻ.

لقد حاول المعطل أن يقبح الاستواء الحقيقي في نفس السامع بأن يجعل الاستواء في حق الخالق والذي ورد في قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه:٥. يعني الجلوس.

ولم يفهم من الآية إلا معنى مستهجن يدل على تمثيل الخالق بالمخلوق ووصف السلف الصالح بالمجسمة أو المشبهة، ولذلك نفي

---

(١) الرسالة التدمرية ص ٢٦: ٢٨ بتصرف.

الاستواء. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ الحاقة:١٧. لم يفهم منه أيضا إلا أنّ حمل الملائكة لعرش الله، يلزم منه أنهم يحملون الله وهو مفتقر إليهم.

وهو في حقيقته قد طبق قانون الجاذبية الأرضية على الله تعالى في استوائه وعلوه على عرشه، فهل يصلح قانون الجاذبية الأرضية أن يطبق على الخالق سبحانه وتعالى، أو على حملة العرش؟!

إن الجالس أو المحمول تجذبه الأرض إليها بقوة منتظمة خلقها الله في ذات الأرض، وتسمي حديثا بعجلة الجاذبية الأرضية، وقد وجد بالتجربة أن عجلة الجاذبية الأرضية تساوي بالقيمة التقريبية ٩,٨ متر/ث٢، ومعني هذا أن الجسم يسقط في كل ثانية مربعة مسافة تسعة أمتار وثمانية أعشار المتر، وتزداد هذه القيمة كلما اتجهنا نحو أحد القطبين لتصبح هناك ٩,٨٣ تقريبا، بينما تقل القيمة كلما اتجهنا نحو خط الاستواء لتصبح هناك ٩,٨٧ تقريبا.

وتلك القوة التي خلقها الله في الأرض هي العلة في عملية الجلوس والاستقرار، وهي العلة في ثقل الأشياء عند رفعها، فالجسم المحمول على الكرسي تجذبه الأرض بفعل قوتها بالعجلة المذكورة، والكرسي أو المقعد أو الحامل له رد فعل يساوي في المقدار قيمة القوة الجاذبة المتجهة نحو الأرض، ويضاده في الاتجاه.

ولذلك يبدو الجسم مستقرا، ويسمي المحمول محمولا، والجالس

جالسا. فقد ثبت من النواميس والقوانين التي وضعها الله في مخلوقاته على الأرض أن لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، كما هو مقرر في علوم الحركة الميكانيكية.

وعلي ذلك لو فرضنا أن الله الذي خلق قوة الجذب في الأرض أعدمها، فانعدمت عجلة الجاذبية الأرضية، فهل يكون الجالس جالسا أو المحمول محمولا؟! أم أن الجالس سيكون عال على كرسيه والمحمول لا يفتقر إلى من يحمله؟ حينئذ لا يلزم أن يكون المستوي على الشئ محمولا عليه، بل سيكون عال عليه، غير مفتقر إليه.

وماذا لو قلنا لهؤلاء المعطلة: إن هذا الفرض أعني انعدام الجاذبية الأرضية قد حدث بخروج الإنسان عن نطاق الجاذبية الأرضية في السفن الفضائية، أو المحطات الفضائية، والناس يشاهدون ويسمعون أخبار رواد الفضاء يوما بعد يوم في وسائل الإعلام، فرائد الفضاء يكون عال على كرسيه، ولا يكون محمولا عليه، بل هو الحامل له.

وهذا أيضا واقع يتم فيما يسمى بغرفة انعدام الوزن، حيث يصل وزن الإنسان إلى الصفر، ولا تأثير لقوة جذب الأرض عليه. فإن جاز في حق الإنسان المخلوق أن يكون عال الشئ ولا يكون محمولا والمستوي على الشيء لا يفتقر إليه، فإن الله إذا أخبرنا بأنه استوى على العرش، وجب علينا أن نؤمن بذلك دون طلب العلم بالكيفية؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يرى في الدنيا وليس كمثله شئ. وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

- **التأويل بغير دليل تحريف للكلم عن مواضعه.**

تقدم أنه لا بد لمن أثبت الصفات على منهج السلف الصالح أن يحذر من نوعين من الضلال، وهما التعطيل، وقد تقدم ذكره، والثاني التحريف، وبيانه فيما يلي:

٢- التحريف: هو التأويل بغير دليل، وهو تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن المتكلم يقصد شيئا في كلامه يختلف عن المعنى الذي أراده المؤول، والسبب الذي دفع أهل الضلال إلى التأويل الباطل لنصوص الكتاب والسنة، أن المعطل بعد رفضه للنصوص بناء على اعتقاده التمثيل والتشبيه فيها كما سبق، أراد أن يستر جريمة التعطيل حتى لا يقال في حقه إنه يكذب بالقرآن والسنة، فأخفى جريمة التعطيل تحت شعار التأويل وادعاء البلاغة في فهم النصوص، فاستبدل المعنى المراد من النصوص بمعنى بديل لا يقصده المتكلم بها.

روى أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، بدلا من قول تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى:١١، فحرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه يسمع ويبصر، لاعتقاده أن السمع في حق الله ﷻ لا بد أن يكون بأذن أو جارحة.

ويشبه هذا الصنيع الباطل قول المعتزلة والأشعرية بأن الاستواء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ طه:٥. معناه الاستيلاء

والقهر. واليدان في قوله: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ص:٧٥. هما القوة والقدرة.

وكل ذلك وأمثاله منكر من القول وتزوير في لغة العرب، لأن العرب عند التحقيق لا تعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر، ولا اليدين في مثل هذا السياق بمعنى القدرة، ولذلك ذكر ابن تيمية أن التحريف بالتأويل أقبح من التعطيل والتكييف والتمثيل، لأنه ما حرف إلا لأنه عطل، وما عطل إلا لأنه كيَّف ومثل، فجمع أنواع الضلال في هذا الباب بتأويله الباطل.

ولا حجة لقول بعضهم إن اللغة مرنة، وحمالة للمعاني، وفضفاضة تتسع لأنواع التأويل، لأن اللغة لها ضوابط معروفة، لا يسعنا أن نخرج عن قواعدها، فالسلف استعملوا التأويل في عصرهم بمعنى غير ما يعرف الآن عند الأشعرية أو سائر علماء الكلام، إذ تقيدوا بما ورد في القرآن والسنة وما عرف بين الصحابة والتابعين من معاني التأويل، وسيأتي إن شاء الله بيان معناه بالتفصيل.

• مذهب السلف وسط بين التعطيل والتمثيل.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن مذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ كما فعل المخالفون، فعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا،

وحرفوا الكلم عن مواضعه، وألحدوا في أسماء الله وآياته.

ثم بين أن كل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل، جامع بين التعطيل والتمثيل. أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثلوا أولا، وعطلوا آخرا. وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله تعالى.

فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساويا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم.

أما استواء يليق بجلال الله تعالى، ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها، كما يلزم من سائر الأجسام، وصار هنا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع، فإما أن يكون جوهرا أو عرضا، وكلاهما محال، إذ لا يعقل موجود إلا هذان، وقوله: إذا كان مستويا على العرش فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا، فإن كليهما مثل، وكليهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله، ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها [(١)].

(١) مجموع الفتاوى ٥/٢٧ بتصرف.